

الضعف في العلوم العربية سبيل الانحراف

كتبه
الدكتور عبدالعزيز الدغيثر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، اختار أفضل اللغى لخير الكتب، " وربك يخلق ما يشاء ويختار"، واختار أمة العرب من بين الأمم، ليكون منهم أفضل الأنبياء والرسل صلى الله عليه وسلم، فكان من شرف أمة العرب أن حملوا على أعتاقهم نشر خير الرسالات بين الأمم، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد أما بعد:

فإن مما يؤسف له ذلك العزوف الكبير من الناس عامة ومن طلبة العلم خاصة عن تعلم أشرف اللغات التي نزل بها أشرف الكتب ونطق بها أفضل الرسل، مع علم الجميع بأنه لا يمكن الدين الخاتم الذي هو السبيل الوحيد للنجاة إلا بالتعمق في لغة العرب ومعرفة أساليبهم.

وفي هذا البحث تذكير بأهمية العربية وفضلها، وتعليمها الصغار، واشتراطها للتخصص في العلوم الشرعية.

اهتمام السلف بتعليم العربية

كان سلف الأمة وقادتها يحرصون على التوعية بأهمية تعلم العربية لكل أحد. قال عمر بن الخطاب ا: «تعلموا العربية فإنها تزيد في المروءة»^(١).

وروى أبو بكر الأنباري في «إيضاح الوقف والابتداء» أن عمر كتب إلى أبي موسى الأشعري ا أن: «مر من قبلك بتعلم العربية فإنها تدل على صواب الكلام»^(٢).

وعن أبي العالية قال: «كان ابن عباس يعلمنا اللحن. قيل: يعلمنا الصواب. وقيل: يعلمنا الخطأ لنجنبه»^(٣).

وعن الحسن البصري أنه سئل: «ما تقول في قوم يتعلمون العربية؟ قال: أحسنوا، يتعلمون لغة نبيهم»^(٤).

وأنشد المبرد:

النحو يبسط من لسان الألكن والمرء تعظمه إذا لم يلحن

فإذا أردت من العلوم أجلها فأجلها منها مقيم الألسن^(٥)

قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله: «والجلالة هنا نسبية إلى علوم الآلة، والله أعلم»^(٦).

وقال الشعبي: «النحو كالمالح في الطعام لا يستغنى عنه»^(٧).

وروى أبو نعيم في رياضة المتعلمين عن ابن شبرمة قال: «زين الرجال النحو وزين النساء الشحم»^(٨).

وفي أهمية تعلم اللسان العربي يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإنّ اللسان العربي

(١) الجامع ٢/٢٥.

(٢) الغريب للخطابي ١/٦١.

(٣) الغريب للخطابي ١/٦١.

(٤) الغريب للخطابي ١/٦١.

(٥) الجامع ٢/٢٥.

(٦) حلية طالب العلم ص ٦٠.

(٧) تدريب الراوي ٢/١٦١، الجامع للخطيب ٢/٨، حلية طالب العلم ص ٥٩.

(٨) الغريب للخطابي ١/٦١.

شعار الإسلام وأهله، واللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميّزون»^(٩).

وقال رحمه الله: «معلومٌ أنّ تعلّم العربية وتعليم العربية فرضٌ على الكفاية، وكان السلف يؤدّبون أولادهم على اللحن، فنحن مأمورون أمر إيجابٍ أو أمر استحبابٍ أن نحفظ القانون العربي، ونُصلح الألسن المائلة عنه، فيحفظ لنا طريقة فهم الكتاب والسنة، والاقتداء بالعرب في خطابها، فلو ترك الناس على لحنهم كان نقصاً وعبثاً»^(١٠).

وقال أيضاً رحمه الله: «اعلم أنّ اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخُلُق والدين تأثيراً قوياً بيناً، ويؤثر أيضاً في مشابَهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابَهتهم تزيد العقل والدين والخُلُق، وأيضاً فإنّ نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفة فرض واجب، فإنّ فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يُفهم إلاّ بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب»^(١١).

وليُعلم أنه لا سبيل إلى ضبط الدين وفهمه إلاّ باللسان العربي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإن الله لما أنزل كتابه باللسان العربي وجعل رسوله مبلغاً عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به لم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفة هذا اللسان، وصارت معرفته من الدين، وصار اعتياد التكلم به أسهل على أهل الدين في معرفة دين الله وأقرب إلى شعائر الدين وأقرب إلى مشابَهتهم للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار في جميع أمورهم؛ ولذلك كان أهل بلاد فارس أقرب العجم إلى فهم الدين لقرب لغتهم من اللغة العربية. ونلاحظ أنه لم ينبغ منهم نابغة في العلم إلا بعد تعلمه اللسان العربي»^(١٢).

وقال الشاطبي رحمه الله: «وعلى الناظر في الشريعة والمتكلم فيها أصولاً وفروعاً أمران: أحدهما: ألا يتكلم في شيء من ذلك حتى يكون عربياً أو كالعربي في كونه عارفاً باللسان العربي، بالغاً فيه مبلغ العرب. قال الشافعي رحمه الله: فمن جهل هذا من لسانها - وبلسانها نزل الكتاب وجاءت السنة - فتكلف القول في علمها، تكلف ما يجهل بعضه، ومن تكلف

(٩) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٢٠٣.

(١٠) الفتاوى ٣٢/٢٥٢.

(١١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢٠٧.

(١٢) اقتضاء الصراط المستقيم / ١٦٢.

ما جهل وما لم تثبت معرفته كانت موافقته للصواب - إن وافقه - غير محمودة والله أعلم، وكان بخطئه غير معذور إذ نطق فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الخطأ والصواب فيها. ثم قال الشاطبي: وما قاله حق، فإن القول في القرآن والسنة بغير علم تكلف، وقد نهينا عن التكلف، وقد قال ^: «حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فاستلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»^(١٣)، لأنهم إذا لم يكن لهم لسان عربي يرجعون إليه في كتاب الله وسنة نبيه ^ رجع إلى فهمه الأعجمي وعقله المجرد عن التمسك بدليل يضل عن الجادة. قال الحسن البصري رحمه الله: «أهلكتهم العجمة يتأولونه على غير تأويله». ثانيهما: إذا أشكل عليه شيء فإنه يسأل أهل العربية»^(١٤).

(١٣) رواه البخاري (فتح ١ / ١٧٤)، ومسلم (١٦٧٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(١٤) الاعتصام ٢ / ٢٩٧.

تعليم الصغار العربية:

ولما كان الاختلاط بالأعاجم مظنة لفساد اللسان العربي، حرص السلف على تقويم ألسنة الصغار من اللحن فقد جاء عن نافع عن ابن عمر ب «أنه كان يضرب بنيه على اللحن»^(١٥).

ولم يكن السلف مُغفلين علوم العربية عند تعليم أبنائهم بل كانوا يولونه قدراً كبيراً، فقد أرسل معاوية إلى دغفل فسأله عن العربية وعن أنساب العرب وسأله عن النجوم فإذا رجل عالم. قال: «يا دغفل من أين حفظت هذا؟ قال: بلسان سؤول، وقلب عقول، وإن آفة العلم النسيان. قال: انطلق بين يديّ - يعني ابنه يزيد - فعلمه العربية وأنساب قريش والنجوم وأنساب الناس»^(١٦).

ولما دفع عبدالملك ولده إلى الشعبي يؤدبهم قال: علمهم الشعر يمجدوا وينجدوا^(١٧)، وحسن شعورهم تشتد رقابهم، وجالس بهم عليه الرجال يناقضوهم الكلام^(١٨).

(١٥) رواه ابن أبي الدنيا في العيال ١ / ٥٠٨، والبيهقي في الكبرى ٢ / ١٨.

(١٦) رواه ابن أبي الدنيا في العيال ١ / ٥٢٨.

(١٧) أي: يرتفعوا كما في لسان العرب، مادة: نجد.

(١٨) رواه ابن أبي الدنيا في العيال ١ / ٥١٢، والبخاري في الأدب المفرد (٨٧٣)، وفي البداية والنهاية

(٦٦ / ٦) من طريق المدائني أن عبدالملك قال ذلك لإسماعيل بن أبي المهاجر، بلفظ أطول من هذا.

مكانة العربية في ترتيب العلوم لطالب العلم:

نقل الذهبي في السير عن أبي العيناء قال: أتيت عبد الله بن داود الخريبي فقال: ما جاء بك؟ قلت: الحديث. قال: اذهب فاحفظ القرآن. قلت: قد حفظت القرآن. قال: اقرأ ﴿وَأْتَلَّ عَلَيَّ هَمٌّ نَبَأَ نُوحٍ﴾ الآية [يونس: ٧١] فقرأت العشر حتى أنفذته. فقال لي: اذهب الآن فتعلم الفرائض. قلت: قد تعلمت الصلب والجد والكُبر. قال: فأبما أقرب إليك ابن أخيك أو عمك؟ قلت: ابن أخي. قال: ولم؟ قلت: لأن أخي من أبي وعمي من جدي. قال: اذهب الآن، فتعلم العربية. قلت: قد علمتها قبل هذين، قال: فلم قال عمر - يعني حين طعن - يا لله يا للمسلمين، لم فتح تلك وكسر هذه؟ قلت: فتح تلك اللام على الدعاء، وكسر هذه على الاستغاثة والاستنصار، فقال: لو حدثت أحداً لحدثك^(١٩).

وروى أبو نعيم عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: كانوا يؤمرون أو كنا نؤمر أن نتعلم القرآن، ثم السنة، ثم الفرائض، ثم العربية الحروف الثلاثة، قال: قلنا: وما الحروف الثلاثة؟ قال: الجر والرفع والنصب^(٢٠).

* * *

(١٩) السير ٩ / ٣٥١. والأشهر: يا لله ويا للمسلمين. والمثبت من السير.

(٢٠) الغريب للخطابي ١ / ٦١.

العلم باللسان العربي لطالب الفقه والاجتهاد

أهمية العربية للمجتهد في الفقه:

يشترط في من يريد التفقه في الدين أن يعلم كل ما يعينه في فهم نصوص الوحيين من علوم النحو والصرف والغريب والتراكيب العربية. وقد شرطه الجماهير من الأصوليين كالشافعي والغزالي والجويني والآمدي والقراقي والفتوحى والطوفي والشوكاني وغيرهم^(٢١).

بل نجد أن ابن حزم رحمه الله يصرح بوجوب تعلم النحو للمفتي^(٢٢)، حتى لا يقع في الخطأ وإضلال الناس جراء الفهم السقيم للنصوص.

ومعرفة علوم العربية من الدين لأنه لا سبيل إلى فهم الوحيين إلا بذلك، قال شيخ الإسلام: «إن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ثم منها ما هو واجب على الأعيان، ومنها ما هو واجب على الكفاية»^(٢٣).

ولذلك حرص الفاروق ا على هذا الأمر فكان يذكر الصحابة الذين اختلطوا بالأعاجم ألا يغفلوا علوم العربية، فقد كتب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما قال: «أما بعد: فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية، وأعرّبوا القرآن فإنه عربي»^(٢٤).

وقال مرة موجهاً الناس: «تفقهوا في الدين وأحسنوا عبارة الرؤيا وتعلموا العربية»^(٢٥). قال شيخ الإسلام: «لأن الدين فيه فقه أقوال وأعمال، ففقه العربية هو الطريق إلى فقه الأقوال وفقه الشريعة هو الطريق إلى فقه الأعمال. وقال الفاروق رضي الله عنه أيضاً:

(٢١) كما في كتاب إبطال الاستحسان في خاتمة الأم ٧ / ٢٧٤، والرسالة / ٥٠٩ - ٥١١ والمستصفي
٣٥٢ / ٢ والبرهان ٢ / ٨٦٩-٨٧٠ وفواتح الرحموت ٢ / ٣٦٣ وشرح الكوكب المنير ٤ / ٥٨١
والإحكام ٤ / ١٧٠ والذخيرة / ١٣٧ وشرح مختصر الروضة ٣ / ٥٨١ وإرشاد الفحول ٢ / ١٠٣١
والمهذب ٥ / ٢٣٢٥.

(٢٢) الإحكام ٥ / ١١٩-١٢٠.

(٢٣) الاقتضاء ١ / ٤٧٠.

(٢٤) رواه ابن أبي شيبة (٩٩٦٣).

(٢٥) رواه عبدالرزاق في المصنف ٤ / ٣٢٣.

«تعلموا اللحن والفرائض فإنها من دينكم»^(٢٦).

وقيل للحسن البصري رحمه الله: رأيت الرجل يتعلم العربية ليقوم بها لسانه ويقوم بها منطقته؟ قال: نعم فليتعلمها، فإن الرجل يقرأ بالآية فيعيا بوجهها فيهلك، وقال: أهلكتهم العجمة يتأولون القرآن على غير تأويله^(٢٧).

وقد كان كبار الأئمة يُعَنون بعلوم العربية عناية فائقة، قال الشافعي رحمه الله: من تبحر في النحو اهتدى إلى كل العلوم. وقال أيضاً: لا أسأل عن مسألة من مسائل الفقه إلا أجبت عنها من قواعد النحو^(٢٨).

والجرمي^(٢٩) يقول: أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناس من كتاب سيبويه رحمه الله^(٣٠)، فلما بلغ المبرد هذا الكلام قال: لأن أبا عمر الجرمي كان صاحب حديث، فلما عرف كتاب سيبويه تفقه في الحديث، إذ كان كتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفتيش^(٣١).

وقال الشافعي أيضاً: ما أردت بها - يعني علوم العربية - إلا الاستعانة على الفقه^(٣٢). وقد ذكر بعض العلماء أن معرفة متون مختصرة في علوم العربية تكفي للمجتهد وهذا محل انتقاد فقد، قال الشوكاني رحمه الله: ومن جعل المقدار المحتاج إليه في هذه الفنون هو معرفة مختصر من مختصراتها أو كتاب متوسط من المؤلفات الموضوعات فيها فقد أبعد، بل الاستكثار من الممارسة لها، والتوسع في الاطلاع على مطولاتها مما يزيد المجتهد قوة في البحث، وبصراً في الاستخراج، وبصيرة في حصول مطلوبه. والحاصل أنه لا بد أن تثبت له الملكة القوية في

(٢٦) رواه ابن أبي شيبة (٩٩٧٥).

(٢٧) الاعتصام ١ / ٣٠٤. وقوله: أهلكتهم العجمة. ررواه البخاري في خلق أفعال العباد ١ / ٧٥، ١٠٦، وفي التاريخ الكبير ٥ / ٩٣. وروى ابن أبي شيبة في المصنف (٣٧٥٧١) ٧ / ٣٠٣ عن عمر بن الخطاب ~~رضي~~ قال: أخوف ما أخوف على هذه الأمة قوم يتأولون على غير تأويله.

(٢٨) شذرات الذهب لابن العماد / ٢٣١ عن مجلة البيان العدد رقم ١٨٢ ص ٦٧.

(٢٩) هو إمام العربية أبو عمر صالح بن إسحاق الجرمي البصري، توفي سنة ٢٢٥هـ. السير ١٠ / ٥٦١ - ٥٦٣.

(٣٠) الموافقات ٤ / ٨٣.

(٣١) كتاب سيبويه ١ / ٥ عن مقالات العلامة الطناحي ٢ / ٤٣٨.

(٣٢) السير ١ / ٧٥.

هذه العلوم، وإنما تثبت هذه الملكة بطول الممارسة، وكثرة الملازمة لشيخ هذه الفنون^(٣٣).
وليعلم أنه بمقدار التضلع من علوم العربية مع العلوم الأخرى المشروطة يكون قرب المجتهد من الفهم الصحيح للنصوص، قال الإمام الشافعي رحمه الله: وما ازداد - أي المتفقه - من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته وأنزل به آخر كتبه كان خيراً له^(٣٤).
وقال الشاطبي رحمه الله: «وإذا فرضنا مبتدئاً في فهم العربية فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو متوسطاً فهو متوسط في فهم الشريعة، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية، فإذا انتهى إلى الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة، فكان فهمه فيها حجة، كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة، فمن لم يبلغ شأوه فقد نقصه من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنهم، وكل من قصر فهمه لم يكن حجة، ولا كان قوله مقبولاً»^(٣٥).

(٣٣) إرشاد الفحول ٢ / ١٠٣١-١٠٣٢.

(٣٤) الرسالة / ٤٩.

(٣٥) الموافقات ٤ / ٨٣.

ضرورة التعمق في دراسة لغة العرب لطالب التفسير:

روى أبو عبيد في فضائل القرآن عن أبي بكر الصديق قال: (لأن أعرب آية أحب إليّ من أن أحفظ آية)^(٣٦). وذلك لأن فهم الإعراب يعين على فهم المعنى. والقرآن نزل للتدبر والعمل.

وقال ابن عباس ا: التفسير أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها وتفسير لا يعذر أحد بجهله وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه أحد إلا الله^(٣٧). وكان يقول: إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ديوان العرب^(٣٨).

وقال الشافعي رحمه الله: على الخاصّة التي تقوم بكفاية العامة فيما يحتاجون إليه لدينهم الاجتهاد في تعلّم لسان العرب ولغاتها، التي بها تمام التوصل إلى معرفة ما في الكتاب والسُنن والآثار، وأقاويل المفسّرين من الصحابة والتابعين، من الألفاظ الغريبة، والمخاطبات العربية، فإنّ من جهل سعة لسان العرب وكثرة ألفاظها، واقتناها في مذاهبها جهل جمل علم الكتاب، ومن علمها، ووقف على مذاهبها، وفهم ما تأوله أهل التفسير فيها، زالت عنه الشبه الدّاخله على من جهل لسانها من ذوي الأهواء والبدع^(٣٩).

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله: «لا بُدّ في تفسير القرآن والحديث من أن يُعرّف ما يدلّ على مراد الله ورسوله من الألفاظ، وكيف يُفهم كلامه، فمعرفة العربية التي خُوطبنا بها ممّا يُعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني، فإنّ عمارة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب، فإنّهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنّه دالٌّ عليه، ولا يكون الأمر كذلك»^(٤٠).

وقال ابن قيّم الجوزيّة رحمه الله: «وإنّما يعرف فضل القرآن من عرف كلام العرب، فعرف علم اللغة وعلم العربية، وعلم البيان، ونظر في أشعار العرب وخطبها ومقاولاتها في مواطن افتخارها، ورسائلها...»^(٤١).

(٣٦) الغريب للخطابي ١ / ٦١ .

(٣٧) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ٦ .

(٣٨) مستدرک الحاكم ٢ / ٤٩٩، والأسماء والصفات للبيهقي ٢ / ٨٠ .

(٣٩) الأزهري، التهذيب ١ / ٥ المقدمة .

(٤٠) الإيمان ص ١١١ .

(٤١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ص ٧ .

وأيضاً يحتاج طالب علم التفسير إلى العلم بلغات العرب، إذ من المعلوم أن لكل قبيلة لغتها، وأفصح اللغات لغة قريش إلا أن هناك بعض الكلمات في القرآن جاءت على غير لغة قريش. فقد أشكل على عمر بن الخطاب معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذْكُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧] فقام في المسجد فسأل عنها فقام إليه رجل من هذيل فقال معناها: «على تنقص» أي شيئاً فشيئاً، ودليله قول شاعرنا الهذلي يصف سرعة ناقته:

تَخَوُّفَ الرَّحْلِ مِنْهَا تَأْمِكاً قَرْداً كَمَا تَخَوُّفَ عُوْدِ النَّبْعَةِ السَّفِينُ

أي: أخذ الرحل يحتك بسنام الناقة من سرعتها، حتى كاد ينقص كما يبزي البحار عود السفينة بالسكين لينقص منها.

وسئل أبوبكر عن معنى: ﴿وفاكهة وأباً﴾ [النبأ: ٣١] ما معنى الأب؟ فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم؟». ولهذا السبب يقول الإمام مالك رحمه الله: لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً^(٤٢).

ورحم الله مالكا كيف لو رأى زماننا هذا !!.

العلم بالعربية طريق فهم الحديث:

قال ابن الصلاح: وحق على طالب الحديث أن يتعلم من النحو واللغة ما يتخلص به من شين اللحن والتحريف ومعرثهما^(٤٣).

وروى الخطيب عن شعبة قال: من طلب الحديث ولم يبصر العربية كمثّل رجل عليه برنس وليس له رأس!^(٤٤). وروى أيضا عن حماد بن سلمة قال: مثل الذي يطلب الحديث ولا يعرف النحو مثل الحمار عليه مخلاة ولا شعير فيها^(٤٥).

فمعرفة العربية شرط في المحدث، قال النووي رحمه الله: «وعلى طالب الحديث أن يتعلم من النحو ما يسلم به من اللحن والتصحيف، وقد روى الخليلي في الإرشاد عن العباس بن المغيرة عن أبيه قال: جاء عبدالعزيز الدراوردي في جماعة إلى أبي ليعرضوا عليه كتاباً، فقرأ لهم الدراوردي، وكان رديء اللسان يلحن، فقال أبي: ويحك يا دراوردي، أنت كنت إلى إصلاح لسانك قبل النظر في هذا الشأن أحوج منك إلى غير ذلك^(٤٦).

ويقول الحافظ أبو الحجاج يوسف بن الزكي المزي (ت ٧٤٢هـ) في مقدمة كتابه «تهذيب الكمال في أسماء الرجال»: «ينبغي للناظر في كتابنا هذا أن يكون قد حصل طرفاً صالحاً من علم العربية، نحوها ولغتها وتصريفها، ومن علم الأصول والفروع، ومن علم الحديث والتواريخ وأيام الناس».

(٤٣) المقدمة ص ٤٠٠.

(٤٤) الجامع ٢/ ٢٦.

(٤٥) الجامع ٢/ ٢٧.

(٤٦) الإرشاد ١/ ٣٠٢.

ذم اللحن بعامة ولطالب العلم بخاصة:

كثرت أقاويل العلماء في ذم اللحن. فعن أيوب السخيتاني رحمه الله أنه كان إذا لحن قال: (أستغفر الله) (٤٧).

وقال الأصمعي رحمه الله: «إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قوله ^: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» ؛ لأنه لم يكن يلحن. فمهما رويت عنه ولحنت فيه كذبت عليه.

وروى الخطيب البغدادي أن عليّاً وابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم كانوا يضربون أبناءهم على اللحن. ونقل عن الرحي أنه قال: سمعت بعض أصحابنا يقول: إذا كتب لحن، فكتب عن اللحن لحن آخر، فكتب عن اللحن لحن آخر، صار الحديث بالفارسية!! (٤٨).

وقد تحسّر ابن فارس (٤٩) رحمه الله على أهل وقته من غفلتهم عن العلوم العربية وانشغالهم عنها فقال: «وقد كان الناس قديماً يجتنبون اللحن فيما يكتبونه أو يقرؤونه اجتنابهم بعض الذنوب، فأما الآن فقد تجاوزوا حتى إن المحدث يحدث فيلحن والفقيه يؤلف فيلحن فإذا نبها قالوا: ما ندري ما الإعراب وإنما نحن محدثون وفقهاء فهما يُسرّان بما يساء به اللبيب. ولقد كلمت بعض من يذهب بنفسه ويراها من فقه الشافعي بالرتبة العليا في القياس فقلت له: ما حقيقة القياس ومعناه؟ ومن أي شيء هو؟ فقال: ليس علي هذا، وإنما علي إقامة الدليل على صحته. فقلّ الآن في رجل يروم إقامة الدليل على صحة شيء لا يعرف معناه، ولا يدري ما هو. ونعوذ بالله من سوء الاختيار» (٥٠).

وقال العلامة الشيخ بكر أبو زيد - رحمه الله - في كتابه القيم (حلية طالب العلم): «احذر اللحن: ابتعد عن اللحن في اللفظ والكتب، فإن عدم اللحن جلاله، وصفاء ذوق،

(٤٧) المحدث الفاصل / ٥٢٥.

(٤٨) تدريب الراوي ١٦١ / ٢، الجامع للخطيب ٨ / ٢، حلية طالب العلم / ٥٩.

(٤٩) هو أبو الحسين أحمد بن فارس القزويني الرازي اللغوي، من أعظم عباقرة العربية، يشهد له على ذلك كتبه التي منها الصحابي ومقاييس اللغة، توفي سنة ٣٩٥هـ. ابن فارس اللغوي ٢٥ - ١٠٥.

(٥٠) الجامع للخطيب ٢ / ٢٥ - ٢٩.

ووقوف على ملاح المعاني لسلامة المباني»^(٥١).

وما أحسن ما قاله الشاعر عبدالرحمن العشماوي في وصف من يلحن في لفظه:
يلقي على المرفوع صخرة جهله فيصير تحت لسانه مجرورا
وينال من لغة الكتاب تدمراً منها ويكتب في الفراغ سطورا
ورأيت مبهوراً بذلك كله فرحمت ذاك الجاهل المغرورا
وعلمت أن العقل فينا قسمة والله قَدَّرَ أمرنا تقديرا

الجهل بالعربية من أسباب الزيغ:

من المقرر لدى علمائنا أن الضعف في علوم العربية سبب ضلالاً في فهم كثير من المتفهمة. قال ابن جنح: «إن أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها وحاد عن الطريقة المثلى إليها، وإنما استهواه واستخف حلمه ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة التي حوَّطب الكافة بها» (٥٢).

وقال عمرو بن العلاء لعمرو بن عبيد لما ناظره في مسألة خلود أهل الكبائر في النار، احتج ابن عبيد أن هذا وعد الله والله لا يخلف وعده - يشير إلى ما في القرآن من الوعيد على بعض الكبائر بالنار والخلود فيها - فقال ابن العلاء: من العجمة أتيت، هذا وعيد لا وعد، قال الشاعر:

وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز

ومن أمثلة التفاسير الخاطئة المبنية على الجهل بالعربية قول من زعم أنه يجوز للرجل نكاح تسع حرائر مستدلاً بقوله تعالى: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ [النساء: ٣] فالمجموع تسع نسوة، قال الشاطبي: ولم يشعر بمعنى فُعال ومفعل وأن معنى الآية: فانكحوا إن شئتم اثنتين اثنتين أو ثلاثاً ثلاثاً أو أربعاً أربعاً.

ومن ذلك قول من قال إن المحرم من الخنزير إنما هو اللحم، وأما الشحم فحلال لأن القرآن إنما حرم اللحم دون الشحم، ولو عرف أن اللحم يطلق على الشحم بخلاف الشحم فلا يطلق على اللحم لما قال ما قال (٥٤).

ومن ذلك قول من قال في حديث: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر، يقلب الليل والنهار»، بأن فيه مذهب الدهرية وهذا جهل، فإن المعنى لا تسبوا الدهر إذا أصابتكم مصائب ولا تنسبوا إليه فإن الله هو الذي أصابكم فإنكم إذا سببتم الدهر وقع السب على

(٥٢) الخصائص ٣/ ٢٤٥ عن اللغة العربية والتعريب ص ٣٩.

(٥٣) رسائل الشيخ عبداللطيف آل الشيخ ص ٢٤.

(٥٤) الاعتصام / ٣٠٤.

الفاعل لا على الدهر^(٥٥).

قال الشاطبي رحمه الله: فقد ظهر بهذه الأمثلة كيف يقع الخطأ في العربية في كلام الله سبحانه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن ذلك يؤدي إلى تحريف الكلم عن مواضعه، والصحابة رضوان الله عليهم براء من ذلك لأنهم عرب لم يحتاجوا في فهم كلام الله تعالى إلى أدوات ولا تعلم. ثم من جاء بعدهم ممن هو ليس بعربي اللسان تكلف ذلك حتى علمه^(٥٦).
أسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا ويرزقنا العلم والعمل.

* * *

(٥٥) فتح المجيد / ٣٥٨.

(٥٦) الاعتصام / ٣٠٤. وللاستزادة انظر: كلام الرافعي في إعجاز القرآن هامش صفحة ١٠٥.